ظاهرة جديدة فى الأزهر

للأستاذ محمد محمد المدنى

انتهى العام الدراسى فى الأزهر أو كاد ، وانصرف الطلاب عن فصولهم إلى المذاكرة والإعداد لرحلتهم المقبلة ، وابتدأ الأساتذة فترة استجمامهم التى ألفوا أن ينعموا بها فى كل عام إثر الدراسة وبين يدى الامتحان ؛ أما أنا فقد عدت من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر : عدت من دراسة « علم الأصول » فى كلية الشريعة بين طلاب علىّ كرام ، أحبهم ويحبونني ، وأفهمهم حق الفهم ويفهمونني ، وأنبّهم نصحى وإرشادى فيستمعون إلى نصحى وإرشادى . غايتهم العلم فهم عنه باحثون ، وبغيتهم الحق فهم له مخلصون ؛ لم تطرف عيونهم الدنيا ، ولم تسد مسامعهم الشهوات . رجعت من هذا الجهاد الأصغر ، بل من هذا الجهاد الحبيب إلى النفس الذى نجد فيه معاشر الأساتذة لذتنا ، وننشد بالتعب فيه راحتنا ، إلى جهاد من نوع آخر قد حف بالمكاره ، وأحاطت به الأهوال والصعاب من كل جانب : عدت إلى « الرسالة » الغراء أبثها آلامى وآمالى ، وأسجل على صفحاتها آرائى وأفكارى ، وأتعرض بذلك لسخط الساخطين ، ولوم اللائمين ، وكيد الكائدين

عدت إلى « الرسالة » أخطب على منبرها العالى قوما تناطبهم الآمال فى إصلاح هذه الأمة ، ويرجى منهم النهوض بما حملهم الله من أمانة حين جعلهم حملة هذه الشريعة

عدت إلى « الرسالة » أنادى قوماً يحسبون صيحاتى لهم صيحات عليهم ، فيثقل عليهم نصحى إذا نصحت ، ويُحفِظ صدورهم نقدى إذا نقدت ، وتهيم بهم الظنون فى أمرى إذا سكت ، وتنطلق الوشاة بى من حولهم كما تنطلق الصلال الرقطاء فى الرمال البيضاء ، ينفثون سمومهم ، وينشرون شكوكهم ، ويقولون : هذا شاب مغرور بنفسه ، متطفل على ما ليس من شأنه . ليس هذا بكاتب يصور قلمه ما يشعر به قلبه ، إنما هو فتى يردد ما يسمع أو يعلّم ما يقول . ليس هذا بناصح أمين ، وإنما هو عدو مبين ... قالات سوء يرجف بها المرجفون ، ويمكر بها الماكرون حتى لتطيش منها أحلام ما عهدناها أن تطيش ، وتفتر بالهُجر من القول شفاه لم تكن تفتر إلا عن الحكمة والموعظة الحسنة !

فاللهم عوناً على هذا الجهاد . أنت مولانا فنعم المولى ونعم النصير !

* * *

انتهى العام الدراسى فى الأزهر أو كاد . ولسنا ننظر إلى الأزهر كما ننظر إلى أى معهد من معاهد التعليم فحسب ، وإنما ننظر إلى الأزهر وينظر المسلمون جميعاً إليه على أنه الحصن الأخير الذى لم يبق سواه لشريعة الإسلام وثقافة الإسلام ، فيجب أن نلتفت إليه فى كل مناسبة ، ويجب أن نهتم به فى كل حركة ، ويجب أن نتابع أخباره فلا يشغلنا عنها شىء

وها هو ذا قد أمضى اليوم عاماً من أعوامه الدراسية ، فمن حق كل مسلم أن يعرض تاريخه فى هذا العام ، وأن يحاسبه على ما قدم أو أخر فى شئونه الخاصة والعامة ، ومن الحق على الأزهر أن يثبت لهذا العرض ، ويصبر على هذا الحساب !

فما هو إذن تاريخ الأزهر فى عام ؟

لقد مضت قبل هذا العام أعوام كان الناس يتحدثون فيها عن أشياء كثيرة : كانوا يتحدثون عن « جماعة كبار العلماء » وما يرجى من نشاطها للقيام بواجبها . وكانوا يتحدثون عن « برنامج الإصلاح » الذى اقترح لها . وكانوا يتحدثون عن الكتب والمناهج الدراسية وما يرجى من إصلاحها وحسن الانتفاع بها . وكانوا يتحدثون عن المقررات التى يمضى العام ولا يقرأ منها إلا القليل . وكانوا يتحدثون عن نظام « المراقبة العامة » على التعليم العالى ولأى غرض أنشئت . وكانوا يتحدثون عن الفقه الإسلامى وواجب الأزهر فى وصله بالحياة العامة وعرضه عرضاً يوافق روح العصر . وكانوا يتحدثون عن نظام التخصص وعيوبه التى ضج منها الطلاب وغير الطلاب . وكانوا يتحدثون عن مجلة الأزهر التى هى لسانه وعنوان ثقافته وأداة الدفاع عنه . وكانوا يتحدثون عن واجب الأزهر فى الاتصال النافع بمراكز الثقافة وأندية العلم ولجان التشريع . وكانوا يتحدثون عن مكتبة الأزهر وكنوزها الدفينة التي كاد يأتى عليها البِلى بعد أن أتى عليها النسيان . وكانوا يتحدثون عن رسائل الجماعة الموقرة ، تلك الرسائل التى تكتب لتختبىء فلا تراها عين ولا تسمع بها أذن !

كانوا يتحدثون عن ذلك كله ، وكانوا يتحدثون عن غيره مما لست أذكر الآن ، وكانت « الرسالة » سجلا واعياً لهذه الأحاديث ، ولساناً ناطقاً بهذه الآمال ، بل كان البرلمان بمجلسيه يتحدث عن بعض ذلك ، ويتقدم أعضاؤه فيه بالأسئلة والاستجوابات ، وترسل لجانه إلى مشيخة الأزهر بملاحظاتها على التعليم ومستواه ، وعن « الأمثلة البادية العوار » التي لا ينبغي أن تبقى ماثلة تتأذى بها العيون ... الخ . الخ .

كان ذلك كله في الأعوام الماضية ، وكان أصحاب الرأى والنظر البعيد يعدونه بداءة طيبة للدعوة إلى نهوض الأزهر ، فإن الأزهر إذا سمع الناس يتحدثون عنه ، ورأى الناس يهتمون به ، ووجد بعض أبنائه والمخلصين له يشاركون فى هذه الأحاديث ، ويلفتونه إلى هذا الاهتمام ، لم يلبث أن يفكر فى أمره كما يفكر الناس فيه ، ويومئذ تجد دعوة الإصلاح من النفوس قبولاً ، ومن الآذان إصغاء ، فيتعاون على نجاحها الداعون والمدعوون على سواء

وقد بدت فى هذا العام تباشير تلك الخطوة الثانية فى سبيل النهوض ، وانتقلت أحاديث الإصلاح من ميدان « الرسالة » إلى ميدان آخر هو ميدان الرؤساء والعلماء والطلاب من أبناء الأزهر المخلصين : شعروا بأن الأزهر فى حاجة إلى تكاتف الهمم ، وتناصر العزائم ، ورأوا تيار العلم فى الجامعات الحديثة يوشك أن يكتسح الأزهر اكتساحاً ، وعلموا أن الأمة قد تنبهت إلى ما تفعله كل طائفة من أبنائها ، وأن الدولة قد أصبحت حريصة على أن تجعل دور العلم للعلم فقط ، وأن الأزهر حين انحرف عن طريقه العلمى وانغمس فى الحركات ، وسُخر فى سبيل الأهواء والنزعات ، غض ذلك من مهابته ، وجرأ الأصدقاء قبل الأعداء عليه ، وأزال صيانه الذى كان ينبغى أن يبقى له . علم أبناء الأزهر المخلصون ذلك كله ، وعلموا أن عليهم واجباً لمعهدهم العظيم ألا يقفوا منه موقفاً سلبياً ، والعيون ترمقهم ، والألسنة تتحدث عنهم ، والأصابع تشير إليهم ، فعقدوا العزم على أن يجعلوا من أنفسهم جنوداً للاصلاح ، وخداماً مخلصين للأزهر حتى ينهض نهضته ، ويسترد فى العالم الإسلامى مكانته ، ويعود إليه سابق مجده !

عقدوا العزم على أن يخلصوا للأزهر أكثر من إخلاصهم للأشخاص ، ووطنوا أنفسهم على أن يكونوا صرحاء فى الجهر بالعلة ، أقوياء فى المطالبة بالعلاج ؛ وسرت هذه النزعة الجديدة فى نفوسهم جميعاً : سرت فى نفوس الشباب الأزهرى كما تسرى الحياة فى الأزاهير الناشئة ، وسرت إلى نفوس الشيوخ كما يسرى الماء إلى الجذوع المتعطشة ، بل سرت إلى الرؤساء المسئولين الذين يلون المناصب الكبرى فى المعاهد والكليات ، فأصبح هؤلاء جميعاً مؤمنين بها ، متلاقين عندها ، متناسين كل شىء من خلافاتهم فى سبيلها !

ولست أقول هذا الكلام جزافاً ، أو توسماً فى الآمال ، فإن له لشواهد حاضرة ، وآثاراً بادية ، ربما تناولتها فى مقالاتى الآتية تباعاً . وحسبى اليوم أن أقول للذين كانوا يظنون أن دعوة الإصلاح صرخة فى واد ، أو نفخة فى رماد ، وللذين كانوا يؤثرون اطراد الأمور على أى نسق كان ابتغاء الراحة والهدوء ، ثم للذين بذروا البذر ولم يتعهدوه حتى ينبت :

إن الإصلاح لا يعرف الرجوع ، ولا يعرف الركود . إنه كشعلة من نار يخفضها الخافضون فتأبى إلا ارتفاعاً . إن قوة الإيمان لا تغلب ولا يقاومها إلا مخذول . وإلى اللقاء فى حديث بعد هذا الحديث .

محمد محمد المدنى

يعرض حاليـــاً

بالزيتون أوبرا صيدناية ابراهيم باشا تليفون ٤٩٣٥٦

استعراض (الدنيا شايلها طور)

تأليف الأستاذ أبو السعود الأبيارى

تلحين الأستاذ عزت الجاهلى

إخراج وتمثيل

ملكة الاستعراض السرحى

السيدة بديعة مصابنى

كل يوم أحد حفلة نهارية الساعة ٧ مساء

ويومياً حفلة ليلية الساعة ٩ ونصف مساء